

حركة الجهاد في فكر الشيخ محمد تقي الشيرازي / (قدس)

أ.د. وجدان فريق عناد / مركز إحياء التراث العلمي العربي / جامعة بغداد
أ.د. ستار جبار الجابري / مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية / جامعة بغداد
المقدمة :

تتمتع الحوزة العلمية في النجف الأشرف بأهمية لا تضاهى، لما لهذه المؤسسة من دور علمي ومعرفي عريق، وذلك للمواصفات والخصائص التي تتمتع بها والتي يتم التأكيد عليها دائماً وهي العلم والمعرفة والتقوى والورع والصبر والإحساس بالمسؤولية ازاء قضايا الأمة، فضلاً عن الحرية في التفكير والبحث والتحقيق الذي يعبر عنه بفتح باب الاجتهاد ضمن الإطار العام والضوابط العامة التي وصفها الإسلام. وقد أفرز تاريخ الحوزة العلمية في النجف الأشرف نخبة من الرجال العظام الذين غيروا بأفعالهم وجه التاريخ، وظهروا بلحظات فارقة في تاريخ العراق المعاصر. لذلك يحتل أثر وفعل الرجال في المنعطفات المصيرية للشعوب، مكانة متميزة في سفر التاريخ، وبما يمكنها من الاستدلال على حال تلك المرحلة وأفاق التطلع للمستقبل، والشيخ "محمد تقي الشيرازي" من نمط الرجال الذين غيروا من وجه التاريخ بأفعالهم، لذلك أصبح له منزلة كبيرة في تاريخ ووجدان الشعب العراقي .

وسيركز البحث على مدة لا تزيد عن ستة أعوام من تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤- ١٩٢٠)، وما أفرزته تلك السنوات وأحداثها من أثر عميق ومؤثر، لا يقف عند حدوده السياسية، بقدر ما كان مؤثراً في الفكر والعقيدة والتصرف ومواقف الرجال وصفحات التاريخ.

فالحديث عن آثار وأفعال الإمام محمد تقي الشيرازي لا تحيط به أوراق هذا البحث، لأن ذلك فوق قدراته، لكننا سنركز على فعلين أساسيين من أفعال الإمام، لكونهما

حققا لأنفسهما منزلة كبيرة في تاريخ العراق، وبما يمكننا من خلال استقراءهما، التطلع لآثارهما الايجابية في حياتنا، وما كرسته من حقائق ظلت حية ومتواصلة رغم تباعد السنين.

الحرب العالمية الأولى وإعلان الجهاد :

شهدت منطقة الشرق الأوسط مع بدأ تبشير إطلالة القرن العشرين، جملة من المتغيرات العميقة، التي أذنت بانحسار قوى وبروز أخرى، في ظل شكل صراعي، اتخذ أحيانا منحى عنيفا، وفي أحيان أخرى، كانت أشكاله السياسية والاقتصادية والثقافية، تعبر عن مكنونات القوة التي يملكها كلا المتنافسين، وفقا لإمكاناته وقدراته، من خلال تلمسها على الأرض بأشكال مختلفة، وبما يمكن المتنافسين من التعبير عن قدراتهم على الحسم أو التحالف أو طرح النموذج البديل. وقطعا إن ذلك التنافس الذي شهدته المنطقة مع بدايات القرن العشرين، لم يكن إلا وليد نظرة إستراتيجية عميقة، أخذت بالحسبان إمكاناتها مع ما يماثلها عند الطرف الآخر، فضلا عن تقديراتها الأساسية، وهي تقدم على الدخول في هذا التنافس، إزاء ما يمتلكه الإقليم الشرق أوسطي من ثروات مغرية وموقع إستراتيجي متميز، وأسواق تجارية كبيرة ومستهلكت، مما يمكنها أن تؤدي دورا أساسيا في لعبة القوى المتنافسة. والأکید في هذا الجانب، إن جميع القوى المتصارعة والمتنافسة والطامعة، قد قدرت حساباتها في الربح والخسارة، وهي في خضم تلك اللعبة الكبرى التي اتخذت أشكالا متعددة.

وكان العراق في حينه أحد أقاليم الدولة العثمانية، ولكون الأخيرة، قد اصطفت كأحد أطراف الصراع في الحرب العالمية الأولى، وضمن دول المحور "ألمانيا والنمسا والمجر والدولة العثمانية" المضاد لدول الحلفاء "بريطانيا وإيطاليا وفرنسا وروسيا". فلم يكن من المستغرب، أن تبادر بريطانيا في بداية عملياتها العسكرية ضد

العثمانيين من خلال غزو العراق، والذي كانت طلائعه قد باشرت نشاطها في تشرين الثاني ١٩١٤، عند مدينة "الفاو" الساحلية^١. وكان هذا الإنزال، المثابة التي ابتدأت منها القوات البريطانية قتالها وزحفها المتواصل نحو الشمال حتى إعلان الهدنة عام ١٩١٨.

لقد كان الاتجاه السائد في القيادة العامة المسلحة العثمانية أن ساحة العراق تحتل مرتبة ثانوية بالقياس إلى أهمية الجبهة الروسية العثمانية، ولهذا فإنها أهملت تعزيز الساحة العراقية بالجيش المدرب ذي الكفاية، مؤكدة بذلك عن قصر نظر واضح، إذ عدت مسؤولية الحفاظ على الساحة العراقية، مناطا بقوات الدرك وحرس الحدود، مع ما ينضم لهم من القبائل^٢. دون أن نسقط من اعتبارنا أن أشكال الصراع البريطاني-العثماني قد بدأت منذ القرن السابع عشر، والذي شهد افتتاح أول مقر لشركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة عام ١٦٢٣، والذي اتخذ مسارات متعددة، وكان قمته بحصول بريطانيا على الامتيازات والإعفاءات لمنتجاتها داخل أسواق الدولة العثمانية، مع شكل الحماية المبالغ فيها لمواطنيها، هذا غير اتساع اهتماماتها أو نشاطاتها في أمور كثيرة ومتعددة، شكلت دوما ضواغطا على القرار السياسي العثماني.

لقد تعامل المسلمون مع مفهوم الجهاد بأنه أحد الفروض والثوابت الأساسية في الإيمان بالدين الإسلامي، بل إن البعض يغالي حينما يضع هذا المفهوم بدرجة تتقدم على غيره من الفروض، تعبيرا عن الفيض الإيماني والروحي للمعاني التي يحملها. وقد كانت آخر المظاهر التطبيقية للجهاد قد اقترنت بالفتوحات الإسلامية التي عبرت عنها دول وإمبراطوريات إسلامية كثيرة، وفي أوقات متفاوتة، وإن كان ما يفصلنا عن أقرب حالة منها قرون من السنين. فضلا عن ذلك، فإن تشكيل الجيوش الحديثة

للدول الإسلامية لم يخل من مسحة دينية واضحة، الغاية منها تعبئة حماس المقاتلين ومشاعرهم للأهداف والغايات العسكرية المراد انجازها.

ولذلك فحينما باشرت القوات البريطانية بغزو العراق عام ١٩١٤ فكر قادة الدولة العثمانية في الإفادة من الإيمان والروح الإسلامية لشعوبها، وتوظيفه في خدمة الجهد العسكري للدولة، من خلال إعلان حالة الجهاد التي باتت، وفقا للتفسير الإسلامي، "فرض عين" على كل مسلم قادر على المساهمة فيه، بغض النظر عن رأيه في السلطة القائمة.

وعلى الرغم من كل الجهد الذي بذلته الدولة العثمانية في عموم أقاليمها العربية والإسلامية، لترسيخ حالة الجهاد "كفرض عين" على جميع المسلمين بعد هجوم البريطانيين عليهم في العراق، إلا إن ذلك لم يكن واضحا ومنفذا وملموسا، إلا في الإقليم العراقي، أما بقية الأقاليم، فإنهم اكتفوا بـ"الدعاء". ولذلك فإن انطباق القول بالفعل لم يكن متحققا إلا على الأرض العراقية^٤.

على الرغم من نشوب الحرب العالمية الأولى في أوائل آب عام ١٩١٤، بيد أن الدولة العثمانية لم تتخذ إجراءات مسبقة لمواجهة المخططات البريطانية لحماية مصالحها في العراق، فقد أهملت أمر الدفاع عن العراق، أو التخطيط لحالات محتملة تتطلب ذلك . فلم تضع أية خطة عسكرية مدروسة للدفاع عنه، ولم تشرع ببناء أية تحصينات دفاعية، أو تقوم بمناورات عسكرية، أو حتى تزويد المقاتلين العراقيين الذين اعتمدت عليهم بالأسلحة والمؤونة اللازمة، بل كانت تفتقر إلى وجود خرائط جغرافية خاصة بالعراق^٥.

ونتيجة لهذا الإهمال أصبح العراقيون أنفسهم في مواجهة المحتل البريطاني بالقرب من البصرة، التي تعد مركزا مهما لأمن العراق واقتصاده وثرواته الطبيعية والبشرية

. لذلك أرسل وجهاء البصرة في ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ برقيات إلى علماء الدين في النجف وكربلاء والكاظمية، يستنجدون بهم من البريطانيين الذين أحاطوا بثغر البصرة، طالبت منهم حث العشائر على التصدي للبريطانيين خوفاً على بقية مدن العراق أن يحل بها ما حل بالبصرة. وقد تليت هذه البرقيات على الناس في المساجد من قبل الخطباء، ولقيت اهتماماً واسعاً بينهم، إذ أخذ الخطباء يثيرون مشاعرهم بالخطب الحماسية، مؤكدين فيها أن البريطانيين إذا احتلوا العراق فسيهدمون مساجده وعتباته المقدسة ويحرقون القرآن وينتهكون حرمة النساء ويذبحون الأطفال والشيوخ^٦.

وما أن وطأت أقدام القوات البريطانية أرض الفاو، حتى انطلقت المرجعية الدينية لقيادة الدفاع عن البلاد، داعية العراقيين جميعاً للوقوف صفاً واحداً لمواجهة المحتل البريطاني. ولم يقتصر الدور القيادي للمرجعية على إصدار فتاوى الدفاع، وإنما المشاركة الفاعلة في جبهات القتال، إذ قاد علماء الدين جموع المتطوعين، هادفين من وراء ذلك تحقيق استقلال العراق من السيطرة البريطانية.

وبدأ علماء الدين بإصدار نداءات بوجوب الجهاد في البلاد، وفي الوقت ذاته أرسلت السلطات العثمانية من مركزها في بغداد وفوداً إلى المدن العراقية المهمة وفي مقدمتها النجف الأشرف، لتحث علماء الدين على إصدار فتاوى بالجهاد. ولعل أهم تلك الوفود الوفد الذي أرسل إلى النجف، وضم شخصيات اجتماعية ودينية ورسمية، وقد استقبل بحفاوة كبيرة، والتقى عدداً من علماء الدين، وعلى أثر ذلك عقد اجتماع كبير في جامع الهندي حضره العديد من علماء الدين والوجهاء ورؤساء العشائر، وخطب كل من السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ عبد الكريم

الجزائري والشيخ جواد الجواهري، مؤكدين وجوب مشاركة الحكومة في دفع البريطانيين عن بلاد الإسلام^٧.

وذهب الشيخ حميد الكلیدار، وهو أحد أعضاء الوفد، إلى الكوفة لمقابلة المرجع الديني السيد كاظم اليزدي ومحدثه في أمر الجهاد، فوافق اليزدي على إرسال ولده السيد محمد لينوب عنه في استنهاض العشائر للجهاد^٨.

غادر النجف عدد من علماء الدين مع مؤيديهم متوجهين نحو جبهة القتال، وبدأوا ينزلون في المدن والعشائر الواقعة في طريقهم لتحريضهم على الجهاد. وكان السيد عبد الرزاق الحلو أول العلماء الذين وصلوا إلى السماوة، وكان معه تسعة من أتباعه. وبعد يومين من وصوله وردته برفقة من الوالي جاويد باشا يطلب فيها الإسراع بالمجيء إلى البصرة، فاستجاب السيد لدعوته وأمر أتباعه بالرحيل فوراً نحو البصرة. وبعد أيام من رحيله وصلت إلى السماوة قوافل المجاهدين من مناطق الشامية وأبو صخير والنجف^٩.

ولم تكن تلك الجهود والتحركات بسبب نجاح الدولة العثمانية في عرض خطابها السياسي على رعاياها، بل إن السبب الحقيقي للنجاح جاء بسبب فتاوى رجال الدين، بإجازة الجهاد كفرض عين، رغم أن كثيراً من رجال الدين لم يبرئوا الدولة العثمانية من ممارساتها العدوانية والمقيتة ضد المسلمين، لكنهم كانوا أكثر وعياً من رجال السياسة، حينما اختاروا الانحياز للحالة الإسلامية، رغم كل مرارات التجربة مع العثمانيين. ورغم وجهة النظر القائلة، بأن السلطة العثمانية، سلطة "غاصبة" من وجهة نظر المفهوم "الشيوعي" ولكن حين واجهت هذه السلطة عدواناً وغزواً أجنبياً عام ١٩١٤، فقد استبعد هذه المفهوم، وحل بديلاً عنه، الدعوة للجهاد،

والإفتاء بصوابها، والمشاركة الشخصية وبذل المال والجهد في هذه الحركة الجهادية، لحماية الثغور الإسلامية من اعتداء الكفار.

وفي تاريخ العراق الحديث لعبت الحوزة المدعومة من عشائر الجنوب والفرات الأوسط دورا سياسيا مهما لعل أبرز معالمه كان حينما برز دور علماء الدين من المسلمين الشيعة المهم في توحيد العراقيين وتحقيق الوحدة الوطنية العراقية منذ ما قبل الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٤ الذي كان أهم حلقة في تلك الحقبة، فبعد أن أعلن رجال الدين في النجف الاشرف الجهاد ضد المحتلين كتبت صحيفة نجفية مقالا جاء فيه " كلما زاد أعداؤنا ، كلما اشتدت وحدتنا قوة "١٠ ، وهو ما أظهر قوة العامل الديني والقومي لدى أبناء الفرات الأوسط في الدفاع عن البلاد ضد البريطانيين^{١١}.

دور الشيخ محمد تقي الشيرازي في حركة الجهاد :

لقد كان الإمام المرجع الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي^{١٢} من رجال الدين الافداد، الذين واكبوا سير الحركات الثورية في عصورهم ووجهوا مؤيديهم لخدمة مصالح الوطن العليا، بحيث بدى الرجل أسبق من زمانه، واستثناء في حينه في فهم دور المرجعية الدينية "الشيوعية" الوطني. وبذلك فإنه التقط الجاذب والنافع والموحد في الفهم الإسلامي في معالجته أو تصديه لمثل هذه القضايا، حينما أفتى وساند ودعم حركة المجاهدين، بوجه الغزو البريطاني، متمثلا بقول الإمام علي (عليه السلام) : "ما غزى قوم بأرضهم إلا ذلوا". لأنه وجد وعن يقين ثابت أن الوقوف على الأطلال عتاب أو نواح أو كسل لغايات صغيرة، لا يجدي نفعا، أمام هذه الافتتاحية المتعددة لأشكال من القوى الطامعة في أرضنا وخيراتنا، وخير رد عليها، يكون بالمعادل

النوعي المتمثل بالجهاد الذي وجد الشيرازي في شكل ما متحقق "فرض عين" على كل مسلم في أرض الإقليم الذي يتعرض لهذا الغزو.

لقد كان الإمام الشيرازي يجد في حركة الجهاد، سفراً إيمانياً لكل مشارك فيه، يمكنه من إعادة صقل وتهذيب النفس، بما يبعد عنها ما لحق بها من أدران، بحيث يكون جهاد النفس، متوازياً مع الجهاد الآخر، دفاعاً عن الأرض والعرض. وفتواه وفتوى غيره من العلماء، في دعم وإسناد حركة الجهاد^{١٣}، عبرت عن أفق وزمان إسلامي لا يتكرر، تصاغت معه أزمان أخرى، بدت عاجزة أن تمسك حتى بأطرافه، لأن الإمام الشيرازي والعلماء الآخرين، أرادوا الإمساك بالتاريخ، لا بال اللحظة، لأن في ذلك امتحاناً لإيمانهم قبل أن يكون امتحاناً لوطنيته، ولذلك ظلت وقائع ما حصل رغم مرور قرن كامل عليها، ذكرى عطرة لا تمحيها كل الأحداث، لأنها تعاملت مع الإسلام التكاملي، لا الإسلام المجزأ والمقسم، وفقاً لرغبات الطوائف والملل وما أكثرها.

كما كان للإمام الشيرازي دوره الأساس في تعبئة الصفوف وشد الهمم وإدامة زخم المجاهدين، بكل الوسائل والمعونات، التي تمكنهم من إدامة فعلهم الجهادي. وكان سماحته يجتهد في بلورة موقف واحد لجميع علماء المسلمين إزاء الأحداث التي تتعرض لها البلاد الإسلامية المختلفة، لاسيما في سعي البعض من الدول الاستعمارية لاحتلال أو سرقة ثرواتها^{١٤}. ولقد أفتى معظم علماء الدين ومن المذهبين "السنّي والشيعة" بوجوب الجهاد لدفع الضرر عن المسلمين، حيثما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

والإمام الشيرازي حينما أفتى للجهاد، وشاركه آخرون في ذلك، فإنه جلى الصدا الذي كان يريده البعض أن يكون دائماً، مع شكل عدواني وغير تعاوني، كأحد المميزات الأساسية لصورة ذلك الزمان بين المذاهب الإسلامية، مترفعاً بذلك عن التذرع

بأسباب أخرى، تعطل الجهد، كأن تكون الدولة "سنية" والمفتى "شيعيا" رغم ظلم وتعسف تلك الدولة على مواطنيها من الشيعة، وكان بذلك أوسع عقلا وحكمة ووطنية من قاداته السياسيين، هذا أولا، وثانيا: فإنه بفتواه، خدّم المذهب الشيعي، أيما خدمة، حينما ارتفع بمفهوم الوطنية على الطرح المذهبي، وأظنه بذلك، كان من أوائل المراجع الذي يرغبون بالفصل بين السياسة المطبقة وما تقول به الشريعة، رغم إدراكه بضرورة مشاركة رجال الدين وتصدرهم الصفوف في أوقات معينة تستوجبها الضرورات الوطنية والدينية، لكن الأكيد أن فهمه كان يؤكد على ضرورة ترك السياسة لأهلها، على أن لا تتقاطع مع ثوابت الدين الإسلامي.

وبغض النظر عن سلوك العثمانيين مع العرب، فقد عدّ الغزو البريطاني للعراق اعتداء على حوزة الإسلام، الأمر الذي يستوجب الجهاد بالنفس والمال. وهذا ما فعله علماء ومجتهدو الإسلام في العراق، حينما أصدروا الفتاوى الدينية التي تدعو للجهاد والدفاع عن أرض الإسلام، مما خلق جوا من الحماسة الدينية كانت الدولة العثمانية بحاجة إليه في ذلك الوقت^{١٥}.

وقد شهدت حقول "البرجسية" في منطقة "الشعبية" تواجد المجاهدين من طوائف العراق وقومياته كافة إيمانا منهم بضرورات المواجهة، دينيا ووطنيا، وقد قدر الكثير من الباحثين أن عدد المجاهدين في تلك الموقعة كان بحدود "١٨,٠٠٠"، ينتمي نصفهم إلى قوات إمارة المنتفق^{١٦}.

وفي هذا الجانب علينا أن نشير إلى أن العلامة "هبة الدين الشهرستاني" أحد وكلاء ومقلدي الشيرازي كان يشرف ويدعم ويحرض قبائل المنتفق على استمرار الجهاد دون توقف، رغم انسحاب الكثير من العشائر بعد معركة الشعبية التي جرت في

نيسان ١٩١٥ من الاستمرار بالجهاد، وهذا ما حدث، إذ ظل مقاتلو المنتفق دون بقية المجاهدين يقاتلون الغزاة حتى يوم الهدنة في ١١ تشرين الثاني ١٧١٩١٨.

ولدينا صور من الرسائل المتبادلة بين هبة الدين الشهرستاني وقائد قوات المجاهدين عجمي باشا السعدون بخصوص الحركات العسكرية والدعم المطلوب، وموقف بعض العشائر المنسحبة، أو تلك التي استمرت بالجهاد.

ودعما لحركة الجهاد، فقد وجه الإمام الشيرازي بصرف الحقوق الشرعية كافة لدعم حركة الجهاد وإدامة زخمها، كما أولى اهتماما بضرورة تحذير الناس من الاصطفاف مع الأجنبي، بوجه الدولة المسلمة، تحت هذه الحجة أو تلك^{١٨}.

والقراءة المتفحصية لهذه الأفعال، تدل على عمق الروح الإسلامية الصادقة والمتجذرة في نفسية الإمام الشيرازي، بحيث أجاز صرف الحقوق الشرعية للحوزة العلمية على حركة الجهاد. ولا أظن أن هناك من سبقه أو لحقه من العلماء بهذا الفعل الجريء، رغم تشابه الأحوال في أزمان أخرى، إدراكا منه بتقديم الأهم على ما عداه. كما إن تحذيراته لعموم الناس من الاصطفاف مع الأجنبي تؤشر بدلالات واضحة عن المعنى الروحي والوطني والديني لتلك الدعوة النبيلة التي تسعى إلى تقديم الإسلام وأهله بشكل تكاملي واحد أمام منافسيه أو أعدائه.

إن نتائج معركة الشعبية، التي انتهت لصالح الغزاة، جاء بسبب فارق الإمكانيات التسليحية والقوة النارية التي يملكها الطرفان، ولم يكن الأمر منطوقا في نتائجه النهائية بشجاعة الرجال. فقد قدمت القبائل العراقية، بكامل جهدها المتميز في هذا الجانب، مسنودة في ذلك بفتاوى رجال الدين وقبول وتشجيع المجتمع لما يفعلوه^{١٩}.

كما إن السياسة البريطانية التي تمكنت في وقت سابق من تأسيس ركائز دعم لها، داخل الأنشطة الأساسية والحساسة في المجتمع العراقي، قد نجحت بجهد

الاستخباري والسياسي من تنشيط الهمم والمعنويات مما دعا البعض من القبائل والعشائر للانسحاب من حركة الجهاد. بل إن البعض تطوع لقتال وتضييق الخناق على من ظل يواصل الجهاد بوجه الغزاة، كحال إمارة المنتفق التي لم تلق السلاح بوجه العدو، إلا يوم الهدنة^{٢٠}، مما قلل من حجم وزخم الفعل الجهادي بوجه القوات الغازية، وأتاح لها القدرة في بسط نفوذها على العراق عموماً.

الاحتلال وثورة العشرين :

بعد أن تمكن البريطانيون من احتلال العراق، وضعوا وعودهم التي أعلنها الجنرال مود يوم احتلاله بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ خلف ظهورهم، هادفين أن يستنسخوا تجربتهم في الهند لغرض تطبيقها في العراق، إلا إنهم واجهوا رفضاً جماهيرياً واسعاً، ساندته جملة من الفعاليات المعززة للتوجه.

تعززت الوحدة الوطنية مرة أخرى من خلال موقف الحوزة العلمية في النجف الاشرف من الاستفتاء العام الذي قامت به إدارة الاحتلال البريطاني في العراق عام ١٩١٨، حول تأسيس حكومة وطنية فيه يكون المندوب السامي السير (بيرسي كوكس) رئيساً لها، وحينما عرض البريطانيون أشكال ذلك التوجه، اصدر المرجع الشيخ محمد تقى الحائري الشيرازي فتواه التوضيحية لعموم مسلمي العراق، إذ جاء فيها "ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب أو يختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين"^{٢١}.

وقد عد انتقال المرجع الشيخ الشيرازي إلى كربلاء المقدسة ضربة حقيقية للإدارة البريطانية كونه عمل على إعادة توحيد العراقيين من خلال الوحدة التي قامت بين القوميين ورجال الدين وشيوخ العشائر خلال الحقبة من أيار ١٩١٨ وحتى نيسان ١٩٢٠، إذ جرى التوقيع على مضابط من كافة الجهات العشائرية ورجال الدين

ومثقفى الفرات الأوسط على الاستقلال التام والحكم العربي^{٢٢}، وما كان ذلك ليحدث لولا نفوذ الشيخ الشيرازي وابنه محمد رضا بعد عودتهما من سامراء، إذ توضح تأثير ذلك في دور الحوزة العلمية في تحقيق الوحدة الوطنية العراقية الذي أضفى الطابع القومي للحركة وأكسبها سمات (دينية)، فكان اجتماع القوميين والإسلاميين على استقلال العراق التام وقيام الوحدة الوطنية العراقية في ظل ملك دستوري من أنجال الشريف حسين أتاح هذا البرنامج قيام وحدة وطنية عراقية^{٢٣}.

هذه الفتوى، هي من نشطت وأسندت الدعوة العراقية لانجاز هدف الاستقلال وانتخاب أمير عربي على العراق، حينما جعلت الدين والوطنية، يجريان باتجاه واحد، هدفه الأساس الوطن والمواطن. وقد عزز ذلك النشاط بإرساله رسائل لجميع قادة الدول الكبرى المجتمعين في مؤتمر فرساي لإقرار السلم العالمي عام ١٩١٩، يدعوهم لإسناد المطالب العراقية بنيل الاستقلال. كما كتب رسالة طويلة للرئيس الأمريكي "ودرو ويلسون" يذكره فيها بنقاطه الأربع عشرة، ويطلب تدخله لانجاز الاستقلال وإبعاد البريطانيين عن الإشراف على الشؤون العراقية^{٢٤}.

لقد كان الإمام الشيرازي على معرفة جيدة ومطلعة على قدرات الطرفين البريطاني والعراقي والتي تميل لصالح المحتل، ولذلك فإنه دعا العراقيين إلى سلوك النهج السلمي للمطالبة بحقوقهم "تظاهرات واعتصامات، ومؤتمرات، ومذكرات ورسائل احتجاج،... الخ" تقديرًا منه، بطرق كل أبواب العمل المتاحة في حينه^{٢٥}.

كما كان جهده متميزًا وواضحًا في بلورة وتحشيد جهد جميع العراقيين في مطالبهم بالاستقلال في أعوام ١٩١٩ و ١٩٢٠، بحيث كانت شخصيته محور التجمع لجميع الفئات في شكل نشاطها. وكان مقره في "كربلاء" بعد انتقاله لها من

سامراء، لرغبته في أن يكون قريباً من نبض الميدان، لا يخلو من أحد الموفدين من مختلف أنحاء العراق، ولعل توجيهه بانتخاب ممثلين عن الشعب لمواجهة سلطات الاحتلال، ونقل رغبات الشعب بالتححر والاستقلال، يمثل نقلة نوعية لشكل التوجه المطلوب لانجاز الاستقلال، لاسيما وأنه دعم ذلك التوجه بكتابين أساسيين، يحث الجميع على العمل بهما، وفقاً لهذا الاتجاه^{٢٦}.

إن تجاهل المحتل لرغبات الشعب، دفع الجميع لتغيير اتجاه أشكال المطالبة، وتصعيدها بما يمكنها من التأثير في شكل وصناعة القرار السياسي الخاص بالعراق، بحيث بدت أنشطة الحركة الوطنية العراقية، تؤثر في مجمل أوضاع المحتل، ولذلك ارتأت إدارته، بنفي عدداً من رجال الحركة الوطنية، خارج العراق، وكان من بينهم المرزا "محمد رضا الشيرازي" نجل الإمام الشيرازي، لكن ذلك لم يكن حادثاً يوقف نشاط الإمام في التوجه نحو تحقيق أهداف الوطنيين العراقيين الرامية للتححر والاستقلال، وطلب سماحته من قادة الرأي والعشائر، عدم ربط عودة ابنه كمعادل للأهداف الوطنية حينما يطرحها المحتل كتسوية^{٢٧}.

فضلاً عن ذلك فإن انسحاب أو تراجع بعض القيادات الدينية العراقية المؤثرة، في دعم مطالب العراقيين أو تمسكهم في الابتعاد عن إعطاء رأي واضح وصريح في ما يخص الاستقلال والنشاط السياسي. هذا الأمر دفع القيادات الميدانية في بغداد والنجف الاشرف ومناطق الفرات الأوسط، أن تودع للشيرازي زعامة الثورة روحياً، إزاء ما عرف عنه من جرأة وحزم وإقدام، لاسيما أنه ترافق مع ذلك التوجه، انتقال الزعامة المرجعية له، بعد وفاة سلفه، الشيخ "كاظم اليزدي" في نيسان ١٩١٩، مما أضفى على معسكر الاستقلاليين، الكثير من القوة والجرأة والحزم، وهما ما كانت تحتاجه الأوضاع السائدة آنذاك^{٢٨}.

لقد كان لشخصية الإمام الشيرازي الوطنية والمخلصة والأمنية والراعية لحقوق المسلمين عموماً دوراً أساسياً في وحدة المسلمين في العراق، بغض النظر عن مذاهبهم أو مللهم، وهذا ما كان واضحاً في الفعاليات التي سبقت الثورة، والتي كانت تتوشح دوماً بعلم وموافقة الشيرازي المعنوية والدينية، مما أعطاهما زخماً قوياً ومؤثراً. لقد كان سماحته يرجو حصول العراقيين على مطالبهم من خلال الاتجاهات والفعاليات السلمية، لكن فشل ذلك الاتجاه جراء تعنت البريطانيين وغرورهم، دفعه أن يكون راية الثورة وعلمها والمسند الأول والأخير لها، وصاحب الكلمة النهائية في تقاريراتها، حيثما تستوجبها الحاجة^{٢٩}.

لقد بقيت الآثار الدالة على روحية الجهاد، كامنة في نفوس جميع العراقيين الذين خبت نفوسهم إزاء عدم انطباق ما قاله الجنرال مود بأنهم "جاءوا محررين وليس محتلين" مع وقائع ما يحدث، لذلك كان الأبواب مشرعة نحو الثورة التي كانت تنتظر ملهماً لها، وهذا ما تكفل به الإمام الشيرازي حينما وضعته الأقدار، رجل الساعة المطلوب لإدارة دفعة العمل. ولم يخيب الرجل رجاء وأمل من وضعوا على عاتقه هذه المسؤولية. لأنه بعد أن فشلت الوسائل السلمية في إقناع السلطات البريطانية بتغيير موقفها تجاه مطالب العراقيين المشروعة، فقد التقط لحظة المستقبل البادية في الأفق، رغم ما يحيط بها من ضباب وأمل مؤجل، حينما أذن بالثورة، لأنها القادرة على تغيير كامل الأوضاع، أمام جيروت وغرور محتل طاغ، لا يتورع عن أي شيء في سبيل ديمومة احتلاله، بما يمكنه من نهب وسرقة ثروات وخيرات البلد، ولذلك كان رده على من استفتاه من الزعماء والرؤساء، في جواز القيام بالثورة ضد المحتل، بإصداره فتوى أجاز فيها الثورة المسلحة، سميت بالفتوى "الدفاعية" جاء نصها كالاتي: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب من ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية، إذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبهم"^{٣٠}.

وترافق مع تلك الفتوى، حادثة الرميثة (سلطان)، التي أرخت كبدائية للثورة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠، مما قطع على المترددين كل خيارات المودعة والرجاء التي كانوا يأملونها عند الطرف البريطاني، بحيث بدا أن خيار العنف والقوة، هما الفاصل في شكل النتائج النهائية للصراع. وارى إن فتوى سماحته، بمباركة الثورة، جاءت بعد تيقنه بعدم تغير القناعات البريطانية الخاصة بموضوع الاستقلال، وهذا أمر يتعارض ورغبة عموم الناس، ويتقاطع في الوقت نفسه مع مزاجية وقناعات الإمام الشيرازي، كما إن فتواه للثورة جاءت رغم إدراكه بعدم توازن القوى عند طرفي الصراع، لكنه عبر عن صميمية وطنية خالصة ونزعة ثورة متميزة، لا تتهيب من مواجهة الصعاب والتصدي لها. كما إن فتواه هي من سيرت مسالك الثورة وأدامت زخمها للمرحلة التي امتدت بها، إذ كان لوجوده ودعمه المتواصل للثوار قوة دفع مضافة لقدراتهم على المطاولة، ولذلك، وبدون تجن على أحد أو تجاوز على حقوق الآخرين، فإننا نرى إن فتوى سماحته هي من أسست العراق الحديث، بغض النظر عما قيل سابقا ولاحقا على أحداث الثورة ونتائجها النهائية، فضلا عن ذلك، فإنه لولا تلك الفتوى لما قاتلت العشائر تلك المدة "خمسة شهور"، إذ كانت لقاءاته مع الثوار متواصلة وأساسية للعمل المشترك^{٣١}.

لقد استمر تصاعد قوة الثورة بشكل متنام، لكنها واجهت ضربة موجعة، تمثلت بوفاة ملهمها وقائدها الروحي الإمام الشيرازي في ١٣ آب ١٩٢٠، مما خلف أثرا بينا على نشاط وفاعلية الثوار، رغم إن خليفته في المرجعية شيخ الشريعة الأصفهاني سلك طريق الدعم والإسناد للثورة ومنهجها، ساعده في ذلك وجود الشيخ مهدي الخالصي أحد أبرز القيادات الحركية والثورية في تاريخ العراق المعاصر، قد حافظ على روحية العمل الثوري^{٣٢}، إلا إن آثار غياب الشيرازي كانت واضحة، لاسيما في

تحلل بعض القيادات العشائرية من وعودها التي كان وجود الإمام الشيرازي حيا، تأكيداً على التزامها. ولا أجد مبالغة، حينما أقول، إن الثورة "قبل" وفاته كانت شيئاً، و"بعد" وفاته أصبحت شيئاً آخر، رغم عدم انحرافها عن مساراتها الأساسية التي رعى نموها منذ وقت طويل.

لقد كان فعل القيادات الدينية الداعمة للثورة محل استهجان وعدم رضى وقبول من قبل السلطات البريطانية، ولذلك أبغض البريطانيون، الإمام الشيرازي لأنهم وجدوه خارج إطار تأثيراتهم، مع تباعده عن نغمة الطائفية التي يجيد البريطانيون وأعوانهم من المعتاشين عليهم العزف عليها، مع تطلعه الشديد لانجاز الاستقلال بإصرار لا يلين، ولذلك فإنه لا تجد غرابة حينما يصفه البريطانيون بكل ما هو مسيء لسماحته^{٣٣}، لكنه بزهم بكل مزاياه حين وضع معادلة القوة الوطنية كمعادل لقوة الاحتلال، مراهنًا بكل طاقاته وجهوده وزخمه المعنوي والاعتباري، على القوة الوطنية، دون أن يعير للسلطة واغراءتها أي اهتمام أمام الأهداف الوطنية، وبذلك فإنه يطل على المشهد التاريخي العراقي في أي وقت، دون أن يكون من حق غيره الادعاء بذلك، لجهاديته ومبدئيته وإسهاماته الايجابية في بناء الوطن العراقي ونظرته الشمولية للإسلام التكاملي.

الخاتمة :

يعد الشيخ محمد تقي الشيرازي أحد اهم الشخصيات في تاريخ العراق المعاصر، ذلك أنه كان من أبرز زعماء حركة الجهاد التي واجهت غزو الجيوش البريطانية للعراق . ويعود له الفضل بحدثين كبيرين، لولاهما لما تشكلت الدولة العراقية الحديثة، وهما فتواه التي حرمت اختيار غير المسلم لحكم المسلمين عندما كانت الإدارة البريطانية تفكر بحكم العراق حكما مباشرا، بنظام شبيه بحكمهم في الهند. والحدث الثاني فتواه في ثورة العشرين، تلك الفتوى التي اجبت الثورة وأدامت زخمها، ذلك أنه أصبح القائد والملمه للثوار وزعماء العشائر العراقية .

الهوامش:

- ١ عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ط٣، بغداد ١٩٦٧، ص٦٧.
- ٢ خالد حمود السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة ١٩٠٨-١٩١٨، شركة الربيعان، الكويت، ١٩٨٧، ص ٣٦١.
- ٣ ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ط٦، ترجمة جعفر الخياط، مطبعة أركان، بغداد، ١٩٨٥، ص ١٥٨.
- ٤ حميد حمد السعدون، إمارة المنتفق وأثرها في تاريخ العراقي والمنطقة الإقليمية، ط١، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ١٩٩٩، ص ٢٥٨.
- ٥ شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ط٨، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤، ص ١٦.
- ١٧ رجاء زامل كاظم، دور المرجعية الدينية في العراق في قيادة حركات الجهاد بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، مجلة دراسات في التاريخ والاثار، العدد ٥٨، اذار، ٢٠١٧، ص ٣٧٥.
- ٦ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٤، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٤، ص ١٢٧.
- ٧ عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٦، ص ٦٩؛ رجاء زامل كاظم، المصدر السابق، ص ٣٧٦.
- ٨ علي الوردي، المصدر السابق، ص ١٢٨.
- ٩ عبد العزيز القصاب، من ذكرياتي، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٠٨-١١٢؛ رجاء زامل كاظم، المصدر السابق، ص .

- ١٠ صحيفة العلم - وهي مجلة هبة الدين الشهرستاني - ، النجف الأشرف، السنة الثانية، العدد ٧، صادرة بتاريخ ٢٣/ تشرين الثاني/ ١٩١٤.
- ١١ عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٢، ص ٣٥-٣٦.
- ١٢ هو الميرزا محمد تقى الحائري الملقب بالشيرازي سليل الأسرة العلوية الجليلة في شیراز التي عرفت في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، وهو أول من هاجر من شیراز إلى العراق قاصدا الحوزة العلمية الكبرى في العتبات المقدسة. للمزيد ينظر: عبد الحسين الصالحي، آل الشيرازي وتاريخ المرجعية العظمى، مجلة النبأ، العدد ٦٩، ٩ ذي القعدة ١٤٢٣ الموافق كانون الثاني ٢٠٠٣، ص ١٠.
- ١٣ عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى، ط ٢، مطبعة الشريد، بغداد، ١٩٧٥، ص ١٠٧.
- ١٤ رشيد الخيون، المشروطة والمستبدة، ط ١، منشورات معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٥٧.
- ١٥ علي الوردي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٧.
- ١٦ مكي شيككة، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، ج ١، بيروت ١٩٧٠، ص ١٢٣.
- ١٧ حميد حمد السعدون، المصدر السابق، ص ٢٥٨.
- ١٨ ريد فسر، البصرة وحلم الجمهورية الخليجية، ط ١، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات دار الجمل، كولونيا (ألمانيا) - بغداد، ٢٠٠٨، ص ٢٢٠.
- ١٩ شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ط ٦، دار التضامن، بغداد، ١٩٦٧، ص ٣٧.
- ٢٠ للاستزادة حول هذا الموضوع، يراجع: المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، ١٩٧١؛ ارنولد تي ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولاءين، ج ١، ترجمة وتعليق فؤاد جميل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٢؛ وميض عمر نظمي وآخرون، التطور السياسي المعاصر في العراق، مطبعة جامعة صلاح الدين، ١٩٨٦؛ عبد العزيز القصاب، من ذكرياتي، ط ١، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٢؛ محمد خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط ١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦.
- ٢١ علي الوردي، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٠٣؛ عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة، بيروت، ٢٠٠٨، ص ١٢٩-١٣٠.
- ؛ عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص ٣٧.
- ٢٢ وميض عمر نظمي، المصدر السابق، ص ٣٥٣.
- ٢٣ المصدر نفسه، ص ٣٧٣.
- ٢٤ المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
- ٢٥ عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

٢٦ علي البازركان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، ط ٢، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٩١، ص ١٢٠-١٢٢.

٢٧ عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص ٨٣.

٢٨ علي البازركان، المصدر السابق، ص ٩٢-٩٨.

٢٩ علي الوردي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٤.

٣٠ عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

(سلطان) حادثه الرميثة: اعتقل حاكم الرميثة البريطاني الشيخ "شعلان أبو الجون" شيخ عشيرة الضوالم من قبائل "بني حجيم"، بحجة تأخره بسداد الضرائب المترتبة عليه، لكن واقع الحال أن اعتقاله جاء تحسبا من تأثيره وفعاليته في ادامة زخم الثورة التي بدأت تباشرها تتضح. وقد ارسل له ابن عمه الشيخ "غثيث الحرجان" قوة اقتحامية مكونة من عشرة أفراد من أبناء العشيرة، نجحت في تحرير "أبو الجون" واطلاق سراحه، وأرخت هذه الواقعة كبداية لثورة العشرين. وقد ظلت عشائر بني حجيم تقاتل البريطانيين طوال أيام الثورة، ولم تلق سلاحها اعتباطا، إلا بعد اتفاق متبادل بين الطرفين. وكانت وقائعها في "الرارنيجة" و"العارضيات" والتي اوقعت بالبريطانيين خسائر كبيرة.

٣١ رشيد الخيون، المصدر السابق، ص ١٧٧.

٣٢ عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

٣٣ علي الوردي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٦٥.